بيتر هيرتلينغ

حكايات الولد شقاوة

منشورات
روايات
2

ترجمة:
محمود حسنين

نبذة عن المؤلف:

ولد بيتر هيرتلينغ عام 1933 في مدينة كيمنيتس بألمانيا. صدر له العديد من الأعمال الشعرية والقصصية والروائية والمقالات، وحصل على كثير من الجوائز، كجائزة ألمانيا لكتاب الشباب (1976)، وجائزة زيورخ لكتاب الطفل (1980). كما حصل على جائزة الكتاب الألماني عن مجمل أعماله.

حكايات الولد
شقاوة

حكايات الولد شقاوة

كيف دخل الملجأ

ولم يختلف عن الآخرين

وهل يمكن مساعدته؟

مع خاتمة:

يرد فيها الكاتب على أسئلة القراء الصغار

تأليف: **بيتر هيرتلينغ**

ترجمة: **محمود حسنين**





فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
حكايات الولد شقاوة
بيتر هيرتلينغ

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PZ33.H37D3712 2009
Härtling, Peter, 1933-
[Das war der Hirbel]

حكايات الولد شقاوة/ بيتر هيرتلينغ؛ ترجمة محمود حسنين. ـ ط 1. ـ أبوظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

96 ص: 13×19 سم.
ترجمة كتاب Das war der Hirbel
تدمك 1-404-01-9948-978
1- القصص الألمانية ـ أدب الأطفال   أ - حسنين، محمود

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Peter Härtling
Das war der Hirbel



كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص ب 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف 168 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz, Fachbereich Translations-, Sprach-und Kulturwissenschaft, An der Hochschule 2, 76726 Germersheim, Postfach 11 50, 76711 Germersheim Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

على سبيل التقديم

سواء أكنت في الثامنة أم في الثمانين لن تترك هذا الكتاب من يدك حتى تقرأ آخر سطر فيه، ستضحك وأنت تقرأ مغامرة شقاوة مع السيد دعبوس، وتدمع عيناك عندما يتمارض شقاوة، ستنبهر بقدرة الكاتب على رؤية العالم بعين طفل يتوق إلى الدفء والحنان، وتتذكر في نهاية المطاف شقاوة «العربي» وتتساءل: هل يشعر أحد به؟ ولعل ذلك أحد الأسباب التي دفعتني إلى تعريب الأسماء بدلاً من نقحرتها (أي نقلها حرفياً)، وقد حرصت عند التعريب على اختيار أسماء تثير إيحاءات مشابهة، وتؤدي وظائف مماثلة للأسماء في الأصل الألماني.

محمود حسنين

غرمرسهايم / ألمانيا – ٢٠٠٩

المحتويات

هاكم الولد شقاوة

يقول أطفال الملجأ إن الولد شقاوة أسوأ الجميع، هذا غير صحيح؛ بل كل ما في الموضوع أنهم لم يفهموه فحسب. وعلى أي حال فالأطفال لا يمكثون في هذا الملجأ طويلاً؛ إذ يودع في هذا البيت الواقع على أطراف المدينة أطفال الشوارع والأطفال إن عجز آباؤهم عن تربيتهم، أو تخلت عنهم أمهاتهم، أو كانوا عند أبوين بالتبني و«لم يفعلوا الصواب»؛ فهو ملجأ انتقالي ينقل منه الأطفال إلى ملاجئ أخرى.

زهد الجميع في الولد شقاوة؛ لذا كان ضيفاً دائماً في الملجأ. وكان في التاسعة من عمره، وطوله مثل طول طفل في السادسة. له رأس ضخم ينمو عليه شعر أشقر خفيف لا يصففه أبداً. ومع أن جسمه هزيل إلا أن الجميع كان يخشون بطشه؛ فقد كان ينتصر في المشاجرات دائماً.

يعاني شقاوة من مرض لم يفهمه أحد؛ فقد اضطر الطبيب لإخراجه من بطن أمه بكمّاشة عند ولادته،

فجرحه في رأسه، ومنذ ذلك الحين وهو يعاني من الصداع، ويدعي الكبار أنه ليس في كامل قواه العقلية. أمه لا تريده، ولم ير أباه أبداً. أول أبوين بالتبني أحباه جداً كما يقول، ولكنه لم يتمكن من المكوث عندهما طويلاً لأن الجيران كانوا يخشون مقالبه. كما أن المرض اشتد عليه وآلمه رأسه بشدة، ثم أصابته نوبة غضب شديدة لم يعد يعرف نفسه فيها، فأودعه أبواه بالتبني في مستشفى مكث فيها ردحاً من الزمن، وأخذ فيها الحقن والحبوب، ثم ذهب مع أبوين بالتبني جديدين لم يحباه وأعاداه إلى الملجأ.

كانت أمه تزوره أحياناً، ولكنها كانت تترك انطباعاً مفزعاً في نفوس الأطفال الآخرين، كانت بدينة ووجهها مصبوغ بالمساحيق، وكانت ترتدي في كل زيارة قبعة كبيرة مرصعة بأحجار لامعة، أطلقت فضّة أكبر بنات الملجأ ـ عليها اسم عمامة. وفي كل مرة كانت تطلق فضّة على القبعة اسم عمامة كان شقاوة يغضب، كان يرى أن الكلمة خبيثة، وأن فضّة تهين أمه بها.

كانت أمه تجلب له أكياساً كبيرة مملوءة بالحلوى والشوكولا، وتحتضنه باستمرار وتئن وتبكي، وبعد ربع ساعة تتركه مؤكدة أنها ستأتي قريباً مرة أخرى؛ ولكنها لا تأتي إلا بعد أربعة شهور ومعها الحلوى والشوكولا، وكان شقاوة ينتظرها بفارغ الصبر طوال الوقت.

ادعى الأطباء الذين فحصوه أنه لن يشفى، وقالوا إن الصداع سيزداد سوءاً، وإنه سيضطر إلى المكوث في المستشفى بصفة دائمة عندما يكبر في السن؛ ولكن الولد شقاوة لم يأبه لذلك الكلام ولم يصدقه.

كانت الآنسة لوزات والآنسة لوزة تعملان في الملجأ، وكان الأطفال ينادون الاثنتين: لوزة لوزات؛ فهذا أسهل عليهم، فتأتي إحداهما على الفور. الآنسة لوزة كبيرة في السن، شعرها أبيض وصارمة جداً. أما الآنسة لوزات فلم تعمل في الملجأ إلا مدة قصيرة، وكانت صغيرة جداً في السن، وحاولت أن تتحدث مع الأطفال، ولكنهم لم يثقوا بها. ربما كان توددها مجرد حيلة.

كانت الآنسة لوزات تكن مودة خاصة للولد شقاوة؛ ولكنه ظل ينفر منها ولا يحبها مدة طويلة. لم يستطع أن يفهم سبب توددها إليه، واكتشفت الآنسة لوزات أنه يغني بمنتهى الجمال، وعندما كانوا يغنون في جوقة المرتّلين كان يسمح له أحياناً أن يغني أمام الآخرين بمفرده، ولكن ذلك كان يثير غضبه أيضاً؛ لأن الصبية كانوا يقولون إن صوته مثل صوت البنات، فطبقة صوته عالية ونقية جداً. ولم يكن يقرأ أو يكتب؛ ولكنه كان يحفظ اللحن من أول مرة يدندن به أحد أمامه.

كانت الآنسة لوزة والآنسة لوزات تقولان إن هذه موهبة رائعة، لكنه لم يكن يأبه بها؛ فكثيراً ما كان يرفض أن يغني. وفي الحقيقة إنه لم يغن إلا حسب مزاجه، كان يجلس على أعلى غصن في شجرة التفاح التي في الحديقة. وفي الأسفل تولول لوزة ولوزات قائلتين: «ستنكسر رقبتك»؛ فيتأرجح على فرع الشجرة بقوة حتى تولولان أكثر، ويغني كل الأغاني التي يحفظها.

هذه ليست إحدى حكايات شقاوة؛ فالحكايات لمّا تبدأ بعد. تروي الحكاية الأولى كيف تعرفت الآنسة لوزات - وهي لم تعمل في ملجأ مثل هذا من قبل - على الولد شقاوة. تعرفت عليه على نحو جعلها تتمنى الفرار من الملجأ.

سروال شقاوة

ينام الصبية إذا كانوا بين السادسة والعاشرة في عنبر كبير بحجم صالات الانتظار في محطات القطار الصغيرة، تتلاصق فيه الأسـرّة فلا تترك حيزاً للجري؛ لذلك يلعب الصبية على الأسرّة، يقفزون عبر الفراغات الصغيرة، ويغطون أنفسهم بالملاءات، وهي الأغطية التي تفرش على الأسرّة، ويرمون بعضهم بعضاً بالوسادات، يفعلون ذلك مساء كل يوم؛ ولكنهم لا يستطيعون فعل ذلك في الصباح، لأنهم مضطرون للاستيقاظ مبكراً والاغتسال، حيث يكونون متعبين.

ذات مساء اشتد الضجيج والصخب في عنبر النوم، كان الكل يصرخ بملء فيه؛ فقالت الآنسة لوزة للآنسة لوزات قبل أن تذهب الأخيرة إلى عنبر نوم الصبية: «من الأفضل ألا تحاولي أن تقولي شيئاً، لا يسمع أحد شيئاً في هذا الضجيج؛ أعط إشارات بيدك».

هالها الضجيج الشديد وهي ما تزال في الممر المؤدي إلى العنبر، وانتابها الخوف، وعندما دخلت

الغرفة وجدت الصبية يتواثبون، ولم يعيروها أدنى اهتمام، فعلت ما نصحت به الآنسة لوزة وأعطت إشارات بيديها. أشارت إلى الأسرَّة ووضعت كفيها على وجنتيها؛ أي «يجب أن تناموا الآن»، ولكن لم يلق أحد منهم بالاً لها، حاولت أن تصرخ لإيقاف الضجيج؛ ولكن لا حياة لمن تنادي، فبدأت تضحك فلفت هذا انتباه الصبية.

التف حولها بعضهم وتطلعوا إليها، ثم سألوها في نهاية المطاف: «لماذا تضحكين؟».

فردت الآنسة لوزات قائلة: «لأن هذا شيء مضحك؛ أنتم مجانين».

قال جورج أكبر صبي في الحجرة ـ كان نصف رجل تقريباً وأطول من الآنسة لوزات.: «نحن نفعل ذلك مساء كل يوم؛ لا نريد أن ننام الآن».

هدأ الضجيج، وقالت الآنسة لوزات: «ليس لدي مانع، أريد فقط أن أشارككم في ذلك، ويجب أن تهدؤوا في وقت ما حتى يستطيع الأطفال الصغار أن يناموا، فهم متعبون جداً».

عم الهدوء الصالة عدا صوت صراخ شديد جاء من أحد الأركان.

سألت الآنسة لوزات: «من هذا؟».

قال جورج: «هذا الولد شقاوة؛ مجنون!».

أجالت نظرها في أرجاء الحجرة؛ ولكنها لم تعثر على الولد شقاوة، فسألت جورج: «هل اسمه شقاوة فعلاً؟».

قال جورج: «أظن أن له اسماً آخر؛ ولكنه كان يدعى شقاوة قبل أن يأتي إلينا، لا أعرف السبب، ولكن شكله مثل اسمه!».

لم يتوقف الصراخ، لا بد أن نفس شقاوة طويل جداً. سألت الآنسة لوزات: «أين شقاوة؟».

أجاب جورج: «يجلس في خزانة الملابس، هذا بيته، لا يسمح لنا بدخوله، يعض ويضرب ويخدش!».

فلنتركه إذن في بيته بعض الوقت.

سأل جورج: «ما اسمك؟».

قالت: «لوزات».

فصاح أحدهم: «مثل لوزة!» وصاح آخر: «لوزة لوزات»؛ فصار هذا اسماً للآنستين.

طلبت الآنسة لوزات من الأطفال أن يغسلوا أسنانهم، ذهب معظمهم إلى الحمام، وبقي بعضهم، ولم يفعلوا ما قالته، واضطجعوا على الأسرّة، وتصفحوا مجلات قصص الأطفال المصورة ومجلات أخرى، ولم ينظروا إليها.

كان الولد شقاوة لا يزال يصرخ، ذهبت إلى خزانة الملابس، مصدر الصراخ، وفتحت الباب بحذر وكأن الجالس خلفه حيوان متوحش، أصدر الباب صريراً، وجدت في الخزانة ولداً نحيفاً له رأس كبير احمّر من شدة الصراخ، وشعر أشقر منفوش، جلس الولد محدّقاً فيها؛ فقالت: «أنت إذن الولد شقاوة؟».

واصل الصراخ، لم تكن تعرف عمره، قدرت أنه

في الخامسة أو السادسة من العمر، قالت الآنسة لوزة لها فيما بعد: «الجميع يظن أنه لم يتجاوز السادسة؛ ولكنه قد شارف على العاشرة، وهو قوي جداً، كان عليّ أن أحذرك منه».

واصل شقاوة الصراخ محدّقاً في لوزة لوزات، كان عارياً وممسكاً بسرواله الداخلي وقد كوّره في يديه، لم تقل لوزة لوزات شيئاً برهة من الوقت؛ أما الأطفال فقد نظروا إليه في ترقب، كفّ شقاوة عن الصراخ تدريجياً، وشرع فجأةً في الغناء، غنى بصوت في منتهى الصفاء والعذوبة، ارتبكت لوزة لوزات بشدة، ولكن شقاوة لم يتحرك قيد أنملة، ضغط سرواله الداخلي المكور على صدره واستمر في الغناء.

انتظرت لوزة لوزات، وتمنت أن يكف سريعاً عن الغناء مع أن غناءه أثر فيها؛ لكنه لم يفكر في التوقف، سألته بتردد: «ألا تريد أن تنام كالآخرين؟» وأضافت: «لست مجبراً أن تغسل أسنانك».

واصل تفحصه لها بعينيه، ولم يكف عن الغناء،

وعندما همت بالالتفات والعودة نهض شقاوة وتبول في السروال الداخلي المكور، وقذفه في وجهها. تأففت لوزة لوزات، ولكنها ظلت واقفة، وقف الاثنان في مواجهة بعضهما بعضاً: الولد الصغير النحيف ذو الرأس الأحمر الكبير، ولوزة لوزات المذعورة من القزم الصغير.

قالت: «هذه قلة أدب!». انفجر شقاوة قهقهة، كان جسمه يرتج من شدة الضحك، وقال: «ولكني أصبتك بدقة». كان يتوقف بعد كل كلمة ويتكلم بصعوبة، ولكن حالما يغني لا يجد صعوبة في نطق الكلمات.

سألته لوزة لوزات: «ألم يخطر ببالك شيء آخر؟».

هز شقاوة رأسه نافياً.

سألته: «هل تنام الآن؟».

خرج من الخزانة، ومر بجانبها من دون أن ينظر إليها، ثم جلس على سريره، بينما تهامس الصبية

الآخرون فيما بينهم بلا انقطاع، كانوا يحكون لبعضهم كيف قذف شقاوة السروال الداخلي الذي تبول فيه في وجه لوزة لوزات.

سألت لوزة لوزات الصبية: «هل يمكن أن أطفأ النور الآن؟»، رد جورج الكبير قائلاً: «نعم».

أغلقت لوزة لوزات باب عنبر النوم، واستندت إلى الحائط، شعرت بتعب لم تشعر به من قبل.

قالت للآنسة لوزة بعد ذلك: «لم أشعر بمثل هذا التعب من قبل».

فقالت الآنسة لوزة: «نعم شقاوة متعب جداً».

قالت الآنسة لوزات في نفسها: «سيكون شقاوة محل رعايتي واهتمامي».

معركة شقاوة مع الغنم

الملجأ هو المكان الذي بقي فيه شقاوة مدة أطول من الأطفال الآخرين نزلاء الملاجئ التي تنشئها بلديات المدن لإيواء الأطفال مدة من الزمن، إن هربوا من دور الأيتام أو عوملوا معاملةً سيئةً من قبل الأبوين بالتبني، أو كانوا بلا أبوين وتشردوا في الشوارع، في هذه الملاجئ يفحص الأطباء هؤلاء الأطفال، ويطرح المختصون النفسيون عليهم كثيراً من الأسئلة، وهم أناس يريدون أن يعرفوا لم لا يقدر هؤلاء الأطفال على التعامل مع الآخرين، ولم يغضبون ويبكون دائماً، وفي نهاية المطاف يصدر قرار بإرسال هؤلاء الأطفال إلى أبوين بالتبني جديدين أو ملجأ أو مستشفى.

في حالة شقاوة فكان من الصعب اتخاذ قرار؛ لأن مرضه كان أشد من مرض الأطفال الآخرين، وكان - كما يقولون - «لا يحتمل»، في الحقيقة كان شقاوة منبوذاً من الجميع، وأغلب الظن أنه لم يدرك ذلك؛ ولكنه كان يبدي نفوره الشديد من المنافقين أو ممن يتظاهرون باللطف معه، الإنسان الوحيد الذي أحبه

شقاوة جداً هو أمه؛ ولكنها لا تهتم به، ولا يعرف أحد أين تعيش وماذا تفعل، ولا يراها أحد إلا في أثناء الزيارة.

اقترب شقاوة من الآنسة لوزات بعض الشيء؛ ولكنه ظل متشككاً وحذراً، وكان قد تمكن المرة تلو الأخرى من الابتعاد عن الأطفال في أثناء التنزه، وكان الأطفال يصيحون جميعاً عندما يلاحظون أنهم توارى عن الأنظار: «الولد شقاوة فرّ!»، يحدث ذلك مرة في الأسبوع على الأقل، وهكذا كان القائمون على الملجأ في بحث دائم عن شقاوة، وهم يحبونه لذا لا يتصلون بالشرطة؛ لأن ذلك كان يعني حتمية إيداع شقاوة في ملجأ مغلق، وهذا ما لا يريدونه له.

قادته إحدى محاولات فراره إلى الغنم، وقد روى هذه المغامرة على عكس المغامرات الأخرى؛ فهو لا يحب الكلام، لأنه لا يستطيع تكوين جمل مفيدة، وإنما ينطق كلمات مفردة وشتائم، أما مغامرته مع الغنم فأثرت في نفسه بشدة وجعلته ينطق جملاً مفيدة.

أخذت لوزة لوزات بعض الصبية والصبايا في رحلة إلى التلال المجاورة للمدينة. كانت التلال جميلة، يمكن لعب الغمّيضة ـ أو ما تسمى الاستغماية، ويمكنهم الجري فيها ورؤية المدن والقرى من فوق، وكان جورج الكبير ـ كالعادة ـ المرشد، كان يتصرف بصورة رائعة، وحتى لوزة لوزات كانتا تتبعانه، وكانتا تستمتعان بذلك؛ لأن جورج كان ماهراً ويعرف مسالك التلال جيداً، لعبوا الغمّيضة، وكادوا ألا يعثروا على جورج، استمر البحث مدة طويلة، وفي النهاية لم يبق سوى واحد لم يعثروا عليه؛ بالطبع كان شقاوة.

فتشوا كل شيء؛ الجحور الصغيرة والأشجار المجوفة، بحثوا في الأدغال وعلى الشجر؛ لأن شقاوة كان يتسلق الأشجار بمهارة، لم يعثروا عليه، لقد هرب شقاوة مرة أخرى.

عادت الآنسة لوزة مع معظم الأطفال إلى الملجأ، بينما واصلت الآنسة لوزات وجورج الكبير وبعض الصبية الآخرين البحث عن شقاوة، نادوا عليه وقسّموا أنفسهم في مجموعات، وفتشوا عنه المنطقة

كلها مرة أخرى، ولكن لا أثر لشقاوة. ولمّا حل الظلام توقفوا عن البحث.

في الحقيقة كان يجب على لوزة لوزات إبلاغ مديرة الملجأ، ولكنهما لم تفعلا ذلك، آملاً في أن يعود شقاوة بنفسه أو يعيده أحد، كانتا خائفتين عليه أيضاً، ظلت لوزة لوزات ساهرتين طوال الليل، وكانتا تنهضان كلما عبرت سيارة الشارع؛ ولكن لم تتوقف أي سيارة، ولم يدق أحد الجرس ويقول: «هذا طفلكم».

كان الولد شقاوة ـ مثله مثل الأطفال الآخرين ـ يرتدي رباطاً حول عنقه، فيه بطاقة صغيرة عليها اسمه وعنوان الملجأ.

وفي اليوم التالي بينما كان الأطفال يتناولون طعام الغداء نودي على لوزة لوزات للخروج، وعلى الباب وقف عجوز ملتح يحمل شقاوة على ذراعيه وكأنه ريشة، كان شقاوة شاحباً ويرتجف؛ مع أن الجو كان دافئاً.

قال الرجل العجوز مبتسماً: «هذا الولد من

أطفالكم؟ أليس كذلك؟ يا له من ولد! لقد جنّن قطيعي»، كان الرجل يملّس على شعر شقاوة وهو يتحدث، لا شك أن ما حدث مع القطيع لم يكن أمراً بالغ السوء، أنزل شقاوة من ذراعيه وقال: «يمكنك أن تأتي لزيارتي إن شئت».

اصطحبت بنت كبيرة شقاوة إلى صالة الطعام، بينما دعت لوزة لوزات الراعي إلى دخول الملجأ، وحكى الراعي قصة شقاوة على نحو مختلف تماماً عما سيحكيه شقاوة فيما بعد، لا تزال بعض قطعان الغنم ـ لم تعد كثيرة الآن ـ ترعى على التلال المحيطة بالمدينة، ويحرس الراعي أحد هذه القطعان، وقطيعه هو القطيع المسموح له بأكل العشب النامي في المطار، علق الراعي على ذلك قائلاً: «نحن آلة جزّ عشب طبيعية».

روى الراعي أنه كان جالساً أمام عربته في المساء والجو جميل، أثار انتباهه أن قلقاً اعترى الكلاب، بينما ظلت الغنم هادئة، وصاح الراعي قائلاً: «وفجأة!»، ثم واصل حديثه: «بدأ القطيع يتلاطم

كالأمواج، وكأني جالس على شاطئ بحر أو بحيرة كبيرة، والأمواج تتساب أمامي كمنديل غاف إلى أن بدأت تتلاطم، ونبحت الكلاب وكأنها جنّت، ولكنها لم تجرأ على الدخول وسط القطيع، بإمكانكما أن تتخيلا كم فزعت! ظننت في البداية أن ثعلباً أو كلباً متشرداً تسلل إلى القطيع؛ ولكن كلابي كانت ستتصرف على نحو مختلف، كانت خائفة، ذهبت إلى القطيع، وبحثت عن سبب اضطرابه فلم أجده؛ مع أنني بحثت مدة طويلة.

اضطررت للجري مع خرافي يمنة ويسرة، ثغت الحملان وكانت مهتاجة، ظننت أن عفريتا تلبسها جميعا أو أنها مريضة أو أن عاصفة ستهب في الدقيقة التالية، فقد كانت تتصرف على نحو مماثل في هذه الحالة، هكذا حاولت الوصول إلى منتصف القطيع، ولكن الغنم كانت تلكمني المرة تلو الأخرى وكأنها لم تعد تعرفني، حل الظلام، ولم أجد شيئاً، عدت إلى عربتي وجلست أشاهد المسرحية الغريبة، وتدريجياً عاد الهدوء للخرفان وتوقفت الكلاب عن النباح،

وقد وجدت أنه من الغباء مواصلة التفكير فيما قد حدث وذهبت للنوم، وفي أثناء الليل استيقظت مرة أو مرتين، لأن خرفاني جنّت مرة أخرى،

وفي الصباح كنا نريد مواصلة السير، صفرت، فساقت الكلاب القطيع أمامها، فرأيت الصبي في المنتصف تحت الغنم، كان يرتدي قبعة سوداء كبيرة، ومعطفاً رثاً يجرجره خلفه، لأنه أطول منه بكثير، كأنه ظل متنقل! أمسكت بالصبي، يمكنكما أن تتخيلا كم كنت غاضباً! ولكنه نظر إلي ببراءة قائلاً : أسود كثيرة! أسود كثيرة! قلت له: أيها الساذج! هذه أغنام، لم ير غنماً من قبل، وجدت البطاقة الصغيرة حول عنقه، فحملته وأتيت به إلى هنا، لا تعاقبها من فضلكما؛ إنه صبي طيب، ما حدث ليس ذنبه، لم ير في حياته أغناماً، هكذا هم أطفال المدينة».

بعد ذلك بأسابيع حكى شقاوة قصته، استمعت الآنسة لوزات مصادفة إليه وهو يحكي قصته لصبية يستريح إليها بعض الشيء: «انطلقت، أخذت أجري وأجري، وكان هناك عشب طويل، ورجل شرير،

خفت منه، ولكنه لم يفعل شيئاً. كان من الخشب، سرقت قبعته، وسرقت معطفه أيضاً، ومشيت. كانت المنطقة مثل أفريقيا، بل كانت في أفريقيا! وكانت هناك صحراء بها أسود، أتت الأسود، مئات الملايين من الأسود، كانت جميعها مع الكلاب تشمني، كانت طيّبة، أسود كثيرة طيبة، كانت ليلة جميلة، نمت فيها مع الأسود».

لم يتمكن أحد من إقناع شقاوة أن هذه الحيوانات لم تكن أسوداً وإنما هي أغنام، كان يرد بعناد:

«لم تكن أغناماً! إنها أسود!».

ما يدور حول شقاوة وما قد يدور في نفسه

الملجأ الانتقالي أنشأته بلدية المدينة، ويعمل فيه إلى جانب المديرة - التي تكن وداً للولد شقاوة - الآنسة لوزات، هي تكن مودة كبيرة للولد شقاوة أيضاً. أما الآنسة لوزة فلم يكن يهمها أمره، ويعمل معهن أيضاً شاب لا يزال يدرس في الجامعة، وممرضة مهمتها أن تعطي الأطفال الأدوية والحقن في الوقت الصحيح، وسيدة عجوز تكتب الخطابات للمديرة، وتعدّ بطاقة لكل طفل عليها كل ما يجب أن تعرفه لوزة لوزات، ويعمل في الملجأ أيضاً السيد دعبوس وزوجته، وهما - بلا شك - لا يحبان شقاوة بل يكرهانه، كما أن هناك الطبيب، الذي يأتي يومياً إلى الملجأ.

يقع الملجأ في حديقة كبيرة على أطراف المدينة، وأغلب الظن أنه كان فيما مضى بيتاً فخماً يملكه أناس أثرياء؛ إذ كانوا في حاجة إلى ثلاثين حجرة كي يعيشوا كالأثرياء! تقول الآنسة لوزة إن عنبر نوم الصبية كان فيما مضى حجرة الموسيقى، أما عنبر البنات فكان الصالون، وللبيت مدخل كبير بباب

خشبي ضخم يصعب فتحه، ويعتري الخوف الأطفال عند رؤيته أول مرة؛ لأنهم لا يدرون ما ينتظرهم في الملجأ، وخلف الباب بهو كبير جداً يرتفع سقفه عبر طابقين، وتستقبل فيه المديرة الوافدين الجدد، والمديرة امرأة طويلة نحيفة البنية، شعرها أبيض ناعم، وعيناها تضحكان دائماً؛ وصوتها غليظ مثل صوت الرجال، ويصعد سلم خشبي عريض من القاعة إلى الطابق الأول، حيث يقع عنبرا النوم، ويدار الملجأ من الطابق الثاني؛ ففيه حجرات المديرة والآنسة لوزة والآنسة لوزات، انتاب شقاوة الخوف في أول مرة يعبر فيها عتبة الباب ويقف في البهو، وقال في نفسه: لاشك أن هذا قصر، وكلما تكلم سمع صدى صوته، فوجد ذلك مضحكاً، وفيما بعد غنى في الملجأ، وكان الصوت جميلاً، فأسعده ذلك.

ولما كان شقاوة قد سكن في مستشفيات ومنازل كثيرة فقد تغلب على خوفه بسرعة، وتأقلم مع البيت في اليوم التالي، عرف جميع الحجرات، وأدرك جيداً أن القبو - مكان سكن عائلة السيد دعبوس مكان خطر، أرض أعداء بحق يفضل الابتعاد عنها.

وفي عنبري النوم أسرّة حديدية تطقطق في الليل عندما يتقلب عليها الأطفال، وفي الحائط الذي يفصل العنبرين خزائن ملابس لكل طفل فيها درجه، وكانت خزائن الملابس أيضاً مكاناً يختبئ فيه الولد شقاوة أو يقضي فيه ليالي كثيرة.

يستيقظ الأطفال في السادسة والنصف، ويذهبون إلى الحمام، وكانت لوزة لوزات تحرصان على أن يغسلوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم وينظفوا أسنانهم، كان عليهم أن ينظفوا الأسنان صباحاً ومساءً، وكان شقاوة يرى ذلك شيئاً فظيعاً، ولكن على الأقل كان معجون الأسنان بمذاق عرق السوس، وكان للبنات حمام خاص بهن، يدخله شقاوة أحياناً والبنات يغتسلن، ويقفن عرايا أمام الأحواض، فيصرخن عند فتح الباب، رأى شقاوة بناتاً عرايا كثيرات في المستشفيات ولدى من تبنونه، وكان يرى أنهن جميعاً حمقاوات.

وفي الضحى يقسّم الأطفال إلى مجموعات، وتلعب لوزة لوزات والشاب معهم، ويؤدون الواجبات المدرسية

مع الصبية والصبايا الذين يذهبون إلى المدرسة، وهم ليسوا كثراً، ولم يكن حالهم في المدرسة على ما يرام: كان التلاميذ الآخرون يسخرون منهم ويضايقونهم ويضربونهم وينادون عليهم قائلين: «يا أطفال الملجأ! يا أطفال الملجأ!».

وفي الدور الأرضي إلى جانب البهو الكبير هناك صالة طعام ذات نوافذ كبيرة تطل على الحديقة ويغمرها الضوء، ولذلك يحبها شقاوة جداً. وقال للآنسة لوزات: «هنا كان يعيش الملك»، وردت الآنسة لوزات عليه بالقول: «ما دمت تعتقد ذلك؛ فهو كذلك».

كانوا يجلسون على أربعة مناضد طويلة. وبعد الغداء يسود الهدوء مدة ساعتين، يجب على الأطفال الاسترخاء على الأسرة، وإن لم يتعين عليهم النوم، ولكن شقاوة ينام دائماً، لأنه يكون متعباً من الصباح، وعصراً يلعب الأطفال في الحديقة أو يقومون برحلات إن كان الجو جيداً، أما إذا كان سيئاً فإنهم يلعبون في صالة الطعام أو يعملون بعض الأشغال اليدوية، ولم

يكن شقاوة يحب الأشغال اليدوية؛ لأنه لم يكن ماهراً فيها كما كانت تقول له الآنسة لوزة.

هكذا كانت تمضي الأيام، اعتاد شقاوة على ذلك، وتأقلم مع الإيقاع اليومي، وكان يدرك أن كل يوم يختلف عن سابقه. لم يعتن به أحد سوى جورج الكبير، ولم يكن لديه أصدقاء حقيقيون؛ فالأطفال كانوا يخافون من غضبه الجامح وتقلبات مزاجه، وهو ما تسميه الآنسة لوزات «نوبات»، وغالباً ما كان يعتكف في خزانة الملابس، أو في أي ركن بصالة الطعام، أو يتسلق شجرة التفاح في الحديقة حيث يكمن عشّه. وكان يذود عنه ضد كل من يحاول التسلق إليه، ويوقعهم عن أفرع الشجرة ويهلّل فرحاً إذا تألموا.

يضربه الصبية أحياناً، ورغم نحافته الظاهرة إلا أنه كان قوياً وسريع البديهة، وتعلم على مر السنوات أن ينتصر لنفسه ببراعة، وكان ملاكماً جيداً؛ فلكماته سريعة وشديدة، وحتى جورج الكبير كان يخشاها.

تغلب شقاوة على فتى في الرابعة عشر من عمره

يسمونه فرشة؛ لأن شعره منفوش دوماً وشكله مثل الفرشة، تشاجر شقاوة وفرشة على عصا جميلة في أثناء إحدى الرحلات، وانتزع فرشة العصا من يد شقاوة، فجرى شقاوة خلفه وصاح قائلاً: «فلنتعارك!»، قبل فرشة التحدي، ولم تستمر المعركة طويلاً؛ فقد انقض شقاوة مغمض العينين على فرشة، ووجه إليه بيديه الصغيرتين لكمات قوية الواحدة تلو الأخرى، لم يتسن لفرشة أن يرد، وأصابته إحدى اللكمات في رقبته فسقط، أربك هذا الانتصار شقاوة وأرهبه ففر، ولم يعد إلى الملجأ إلا في المساء متستراً بجنح الظلام.

وسأل الآنسة لوزات: «هل مات فرشة؟».

قالت: «لا يزال حياً؛ ولكن من الخطأ الضرب في الرقبة».

قال: «لم أكن أريد ضربه في رقبته؛ بل في وجهه».

قالت: «ولا في الوجه!».

قال: «أين إذن؟!».

قالت: «لا تضربه أبداً!».

قال: «ولكنه عدوي ويسرق عصايّ؟».

هزت الآنسة لوزات كتفيها قائلة: «لا أعرف يا شقاوة».

في تمام السابعة وبعد العشاء يذهب الأطفال إلى عنبري النوم، وفي الثامنة يطفأ النور، حينئذ يكون شقاوة جالساً في الخزانة. وعلى الرغم من أنه يتناول أدوية يقول عنها الطبيب: «إنها تساعد على النوم»؛ إلا أنه لا يستطيع النوم مطلقاً، وكان يشعر بالراحة في الخزانة، يحدث نفسه أو يغني بصوت مرتفع فيغضب الآخرين، ولكنهم لا يمسونه.

وفي التاسعة أو العاشرة يخرج شقاوة من الخزانة، بينما يكون بقية الأطفال نائمين، ويستلقي في السرير، وأحياناً يظل مستيقظاً حتى الثانية عشرة؛ لأن رأسه يؤلمه أو لأنه يفكر في أشياء تؤرقه أو تخيفه أو لا

يفهمها، تعرف الآنسة لوزات ذلك؛ لذا تجلس إليه أحياناً وتحكي له عن أطفال كانوا مرضى وتحسنت حالتهم.

لا أحد ولا الآنسة لوزات ولا المديرة يعرف ما يدور في نفس شقاوة، ومن هو في الحقيقة: فقد كان في حقيقة الأمر غريباً، كان مريضاً ولا يستطيع أن يعبر عن نفسه بصورة مفهومة، ويفعل أشياء كثيرة تربك الآخرين، أو تثير حفيظتهم، يصف الطبيب مرضه بمصطلحات لا تشكل أي نوع من العون؛ لأنها لا تفسر ما يدور في نفسه، ويرى الجميع أن صوته معجزة؛ لذا يقول بعض الناس - ومنهم السيد برغل رجل الدين -: «ثمة شيء طيب في هذا الطفل».

ولكن ما هو الشيء الطيب؟ صوته الجميل فقط؟ أم أنه يستطيع أن يقف ساكناً لمدة عشر دقائق عندما يتعين عليه الغناء؟ أما أنه يشعر بالسعادة عندما تلمس الآنسة لوزات على وجنته؟ أما أنه يفرح بمدح المديرة لاجتهاده في تجميع الأخشاب؟ هل جورج الكبير طيب لأنه يكذب دائماً، وحينما يضمر الحقد

يتبول في السرير؟ أما أن فضّة طيبة لأنها تبتسم بوداعة، وترفع الأطباق عن المائدة، وتتصنع البراءة عندما تكون المديرة بالقرب منها، ثم تعري الصبية من سراويلهم في أحد أركان الحديقة عصراً؟

لا يعرف شقاوة ما هو الشيء الطيب؛ ولكنه يعرف متى يحزن، ومن يؤلمه، ومن يحبه، وهو سعيد ببقائه هنا حيث يشعر بالراحة، ويعرف متى يضطر إلى الهرب، ويدرك شقاوة قيمة ذلك كله؛ لكن الكبار لا يفهمون ذلك، ويقولون باستمرار: «أنت شرير»، ونادراً ما يقولون: «أنت طيب»؛ ولكنه لم يعد يأبه لهذا.

معركة شقاوة ضد السيد دعبوس

أكثر من كان يخشاه شقاوة هو السيد بقّال موظف مصلحة رعاية الشباب؛ فمصير شقاوة في يده، في كل مرة يظهر فيها السيد بقّال تتغير حياته، وما إن يأتي السيد بقّال حتى يتغير كل شيء، والتغيير يكون نحو الأسوأ دائماً، مع أن السيد بقّالاً يزعم قائلاً لشقاوة: «أنا أعتني بك وأرعاك».

ولكن هل كان السيد بقّال يعتني به ويرعاه حقاً؟ في الحقيقة كان السيد بقّال مثل الحمال وشقاوة مثل الحقيبة.

وأكثر من يكرهه شقاوة هو السيد دعبوس بواب الملجأ، كان السيد دعبوس يقول: «مهمتي هي الضبط والربط!»، ويصرخ أحياناً قائلاً: «ما عجزت عنه المربيات سأفعله بنفسي». السيد دعبوس قصير القامة وبدين بشكل غير متناسق، وأنفه أزرق من إفراطه بشرب عصير العنب، تنظف زوجته المنزل، وهو يشغّل التدفئة، ويقص عشب الحديقة ويصلح

الأحواض وأنابيب المياه المعطوبة، ويصرخ قائلاً: «أيها الشياطين! أنتم تخربون كل شيء».

لا يدري أحد سبب كرهه لشقاوة، ذلك أن شقاوة كان يتجنب السيد دعبوس في الفترة الأولى، لأنه كان يخاف منه، خاف من زعيق الرجل البدين، وشاهده وهو يضرب بنتاً من عنبر النوم (ب)، ولم يكن يريد أن يقع في يديه. إلا هذا! فقد ضرب شقاوة كثيراً، وفي مقدوره أن يفرق بين من يضرب بقسوة ومن يتظاهر بذلك فقط. وكانت يد السيد دعبوس يداً قاسية شريرة، وكان يحمل شقاوة مسؤولية كل شيء سلبي.

لو تزحزحت بلاطة في الطريق أو ارتخى مقبض في باب كان السيد دعبوس يقول: «الولد شقاوة هو من فعل ذلك، هذا الغبي المعتوه»، مع أن شقاوة لم يفعل ذلك.

كان شقاوة يعرف أن صداماً سيقع لا محالة بينه وبين السيد عادل! ولكن لوزة لوزات كانتا تحرصان على ألا ينفرد السيد دعبوس بشقاوة أبداً. كانتا تنتبهان لذلك، وكانت المديرة تنتبه لذلك أيضاً.

يعرف السيد دعبوس شغف شقاوة بشجرة التفاح التي في الحديقة، وقال لجورج الكبير الذي كان يتعين عليه في كثير من الأوقات مساعدته: «سأقطع فرع الشجرة الذي يجلس عليه شقاوة»، حذر جورج شقاوة، ولكن شقاوة لم يأبه للأمر؛ فقد كان بدأ حربه ضد السيد عادل: إلا أن الضربة الأولى لم تفلح.

تسكن عائلة دعبوس في القبو، ولا يجرؤ الأطفال على الاقتراب من الدرج المفضي إليه، لقد كانت مملكة عادل، وكان يزود عنها بالزعيق والضرب: «لم يبق إلا أن ينزل هؤلاء الأوساخ إليّ!».

فكر شقاوة ملياً، وتفتق ذهنه عما يلي: ربط شريطاً . كانت الآنسة لوزات قد أهدته إياه . بين السورين الحديديين للدرج، ولكن لم يربطه من أعلى حتى لا يراه السيد دعبوس ويتعثر فيه؛ غير أن السيد دعبوس كان ذكياً، فقد رأى الشريط فوراً، وصرخ: هذا اعتداء على حياتي! وأسرع إلى المديرة، أبدت المديرة أميرة الجد على وجهها؛ مع أنها كانت تريد أن تضحك، فهي لم تكن تحب السيد عادل، وقالت: «علينا أن نبحث في الأمر».

تعرفت الآنسة لوزات على الشريط، ولكنها لم تقل شيئاً، وشقاوة لم يقل شيئاً مدة من الزمن، ثم ذهب خلف المديرة بعد الطعام ووقف أمامها، ولم يتفوه بكلمة برهة، ثم قال في نهاية المطاف متلعثماً: «السيدة المديرة – السيد دعبوس – أنا كنت الاعتداء على حياته!». قالت المديرة: «لقد انتهينا من هذا الأمر؛ وعلينا ألا نخبر أحداً بذلك الآن، وعليك ألا تقدم على مثل هذه الفعلة مرة أخرى». لم يرد عليها وجرى مسرعاً، وأفلحت الضربة الثانية.

لدى السيد دعبوس خمس دجاجات في حظيرة مسيّجة خلف الملجأ، وكان الدجاج يوقظ الأطفال في الصباح، كما أن رائحة الحظيرة كانت نتنة جداً؛ لأن السيد دعبوس لم يكن ينظف الحظيرة كثيراً ويتذرع لذلك بقوله: «أنا غارق في العمل»، ذات مرة شاهد الولد شقاوة جورج وهو ينوم دجاجة تنويماً مغناطيسياً، أو هذا ما قاله جورج على الأقل، وأعجب شقاوة بالتنويم أيما إعجاب، وضع جورج دجاجة على ظهرها ولم تتحرك قيد أنملة. إذا وضعت دجاجة على

ظهرها لا تتحرك، ولكن يتعين قبل ذلك الإمساك بها؛ وهذا ليس بالأمر السهل، وقرر شقاوة أن ينوّم الدجاجات الخمس انتقاماً من السيد عادل.

كان السيد دعبوس يسافر كل يوم جمعة بالسيارة إلى المدينة لإحضار الطعام لـ «مفاجيع». على حد قوله. ويضيف قائلاً: «لم يبق إلا أن يأكلوننا؛ هؤلاء الأطفال لا يساوون شيئاً».

قرر شقاوة أن ينوم الدجاجات تنويماً مغناطيسياً في أحد أيام الجمعة، السيد دعبوس غائب، وزوجته طريحة الفراش؛ إذ كانت تعاني من الربو، كما أن الدجاج لم يكن يعنيها في شيء، فهو ملك لزوجها، دخل شقاوة الحظيرة واصطاد الدجاج الواحدة بعد الأخرى، ووضعها على ظهورها. وفي النهاية اصطفت الدجاجات الخمس بجانب بعضها بعضاً ساكنة تماماً. كان شقاوة يخشى أن يأتي أحد بسبب نقيق الدجاج وهو يصطاده؛ ولكن لحسن حظه لم يأت أحد.

لم ينتبه السيد دعبوس فوراً لما حدث للدجاج عندما

عاد بسيارة النقل، حمل حزم الطعام إلى القبو متعثراً حيناً، لاعناً حيناً آخر، ولم يرى المصيبة إلا عصراً عندما همّ بإطعام الدجاج، جرى إلى المنزل صارخاً: «لقد قتلوهم، قتلوهم كلهم». فتجمع حوله الأطفال ولوزة لوزات والمديرة والطبيب يعتريهم الفزع، لأنهم لم يعرفوا من قتل، ربما زوجته؟!

قالت المديرة: «اهدأ يا سيد عادل! وقص علينا ما حدث».

صاح قائلاً: «الدجاج!!، الدجاجات الخمس ماتت». ترقرقت الدموع في عينه، واندهش الأطفال لأن السيد دعبوس يبكي.

سأل جورج بصوت منخفض: «هل ذبحت؟».

نهره السيد دعبوس وكاد أن يصفعه لولا أن رفعت لوزة لوزات يديهما محذرتين؛ فقال: «لا إنها تقبع هناك في سكون تام».

سألته المديرة: «هل يمكنني أن أرى ذلك؟».

رد السيد دعبوس قائلاً كما لو أنه في مسرحية: «اتبعيني!».

ذهب جورج معهم وهمس في أذن المديرة قائلاً: «لا بد أنها منوّمة فحسب».

سألته المديرة: «ماذا تقول؟».

فوضح لها جورج ما يعنيه؛ كانت الدجاجات ما تزال راقدة. قال السيد دعبوس بأنفاس متهدجة: «انظري!!! إنها ميتة!».

دخل جورج الحظيرة بهدوء، رفع الدجاجات الواحدة تلو الأخرى، ثم أجلسها، ترنحت الدجاجات وصاحت قليلاً، ثم استوت، في البداية الديك، وتبعته البقية، وبعد برهة بدأت في الجري مرة أخرى.

صاح السيد دعبوس قائلاً: «يا للبشاعة!»، ثم صرخ بعد برهة من التفكير موجهاً حديثه للمديرة: «الولد شقاوة!».

أوضحت له المديرة أنها لا تظن أن شقاوة الصغير

يمكنه فعل ذلك، وأنه لا يستطيع أن يصطاد الدجاج ويضعه على ظهره.

قال لها: «بل إنه يقدر على أي شيء».

قالت له المديرة: «اهدأ يا سيد عادل!».

وفي المساء ذهبت الآنسة لوزات إلى سرير شقاوة، جلست معه وقصت عليه حكاية وسألته في معرض حديثها: «هل أنت من فعل ذلك بالدجاج؟».

صمت شقاوة.

قالت: «لم أكن أعرف أن هذا ممكن أصلاً».

نهض شقاوة وقال لها ضاحكاً: «التنويم المغناطيسي شيء رائع، أليس كذلك؟».

نهضت الآنسة لوزات وقالت له: «تصبح على خير» ومضت.

لكن معركة شقاوة ضد السيد دعبوس لم تنته بعد؛ ولم تنته حتى مُني دعبوس بهزيمة قاسية.

ذات مرة اضطر شقاوة للمكوث في الملجأ مع طفلين أو ثلاثة بينما ذهبت الآنسة لوزة لوزات في رحلة، كان عليه أن يخضع للفحص على يد طبيب من المدينة؛ فقد أصابته مرة أخرى نوبات الصداع الشديدة، إلى جانب «نوبات الغضب القديمة»، ولم تفلح الحبوب في تسكين الألم، وكان يشعر بالملل فقرر أن يفسد عمل السيد عادل.

كان السيد دعبوس يريد قص العشب، وقبل أن يقص العشب تعين على الأطفال تنقية العشب من الأحجار؛ لأن السيد دعبوس كان يريد ألا تتعطل جزازة العشب باستمرار، ذهب السيد دعبوس مرة أخرى إلى شقته — على أغلب الظن — لشرب عصير العنب، فخرج شقاوة من المنزل إلى الحديقة، وملأ قبضته حصى من الطريق، ووزعه بإتقان على العشب، لم يلاحظ أن السيد دعبوس الذي شرب بسرعة، عاد إلى الحديقة ووقف يراقبه، وحالما انتهى شقاوة اندفع نحوه، وأمسكه من دون أن ينبس ببنت شفة، ووضعه على الكتلة الخشبية التي يقطع عليها الأخشاب، وانهال عليه ضرباً بيديه الاثنتين.

لم يصرخ شقاوة، تأوه فحسب، وواصل السيد دعبوس ضربه مدة طويلة، ثم دفعه عن الكتلة الخشبية. ظل شقاوة مستلقياً على الأرض، كان كل عضو في جسمه يؤلمه، لم يستطع النهوض.

رفعه السيد دعبوس وهمس في أذنه غاضباً: «إياك أن تتفوه بكلمة واحدة!»، ولكن شقاوة انهار مرة أخرى، مما أصاب السيد دعبوس بالقلق؛ فجرى وجلب منديلاً مبللاً وضعه على وجهه، وقال له: «يجب أن تحتمل الضرب فأنت كلب أجرب!».

شعر شقاوة بتحسن، ولكنه لعب دور المصاب، تأوه بصوت عال وتقلب يمنة ويسرة. استبد الفزع بالسيد عادل، وولول قائلاً: «ماذا عساي أن أفعل؟!» لم يأبه شقاوة للولولة؛ فقد أصبح السيد دعبوس الآن تحت رحمته. حمل السيد دعبوس شقاوة ومضى به إلى شقته، هكذا تعرف شقاوة على شقة السيد عادل، لم تكن زوجته هناك، وضع شقاوة على الأريكة. كانت رائحة عصير العنب تفوح في الشقة، كما هي تفوح من السيد دعبوس نفسه. انحنى السيد دعبوس عليه

ونفس رائحة عصير العنب في وجهه، فشعر شقاوة بالغثيان. رجاه السيد دعبوس قائلاً: «انهض يا ولد».

لم يفكر شقاوة في النهوض وقال: «أين لوزة لوزات؟».

قال السيد عادل: «أنت لا تحتاجهما الآن».

قال شقاوة: «أين المديرة؟».

انتفض السيد دعبوس وشده إلى أعلى ونهره قائلاً: «انهض وامش! لاشك أنك تستطيع المشي!».

تهاوى شقاوة بمهارة، ولم يكن يظن أبداً أن السيد دعبوس يمكن أن يقع في يده على هذا النحو. يالفرحتك يا شقاوة! تأوه شقاوة بشكل رائع، وشرع جسمه في الارتجاف وعيناه في الدوران، وتدلى لسانه من فمه. خاف السيد دعبوس أن يموت شقاوة بين يديه، فخرج مسرعاً، وعاد بعد برهة مع المديرة.

قال: «الطفل»، وأشار بشفقة إلى شقاوة الممدد على الأرض وهو يتلوى ويتشنج ويظهر بياض عينيه.

سألت المديرة: «نوبة؟».

قال السيد عادل: «بالضبط أيتها المديرة؛ لقد وجدته هكذا، ياله من فتى مسكين!».

خاف شقاوة ألا يحقق النصر على النحو الذي أراد، فنهض على الفور، وأشار إلى السيد دعبوس وصاح قائلاً: «لقد ضربني».

أخذته المديرة من يده وأخرجته، وقالت له إنه يتعين عليه الانتظار، وأن الطبيب سيأتي بعد قليل، ثم عادت إلى السيد عادل، لم يسمع شقاوة ما قالته المديرة للسيد عادل، ولكنه كان واثقاً أن السيد دعبوس لن يضربه مرة أخرى، وقد كان، ولكن كل مرة يرى فيها السيد دعبوس شقاوة يزمجر ككلب مسعور، ولكن هيهات! فقد انتصر عليه شقاوة.

اختبارات شقاوة

خضع شقاوة لاختبارات عديدة، وغالباً ما يكون المختبرون نساء، يجلسنه أمامهن على طاولة، ويطلبن منه لعب لعبة يعرفن منها ما إذا كان شقاوة ذكياً أم غبياً، وما إذا كان يحب أمه، وما إذا كان يفضل البقاء وحيداً، أو إذا كان يحب أن يكون لديه أصدقاء أم لا، وغير ذلك.

يطلق على تلك النسوة اسم معالجات نفسيات، وشقاوة يسميهن لاعبات، ويحب شقاوة اللاعبات؛ إلا أن إحداهن أفسدت عليه سعادته باللعب، صرخت فيه باستمرار، ولم تسمح له في أثناء اللعب بالنهوض والجري، وكان يفعل ذلك عندما يفقد رغبته في مواصلة اللعب.

شيئاً فشيئاً أتقن شقاوة اللعب، وعرف بدقة ما تحبه اللاعبات، وعرف كيف يسعدهن ويجعلهن في كل مرة يقلن: «ما أجمل لعبتك!»، ولم تلاحظ اللاعبات إطلاقاً أن شقاوة لا يلعب كما ينبغي وإنما كما يردن.

ولم تكتشف ذلك إلا الآنسة لوزات؛ طلبت منه أن يلعب، كان لديها العديد من القطع الصغيرة التي يتعين عليه ترتيبها، كان يعرف هذه القطع، رتب القطع بسرعة كبيرة على النحو الذي يرضي اللاعبة، ضحكت الآنسة لوزات وقالت: «افعل ذلك مرة أخرى».

رتبها شقاوة مرة أخرى، وبدت اللعبة مثل المرة الأولى تماماً.

قالت الآنسة لوزات: «أنت تحفظ هذا الترتيب عن ظهر قلب؟».

قال شقاوة: «هذا رائع؛ لقد تعلمته، جيد، أليس كذلك؟».

أحضرت الآنسة لوزات لعبة أخرى لا يعرفها وطلبت منه أن يلعب أمامها، رفض شقاوة؛ فقد عرف أنه قد يكشف نفسه، نهض وقال: «يجب أن أذهب إلى الحمام».

قالت الآنسة لوزات: «طيب اذهب وتعال بسرعة».
لم يعد، ولم يفكر بالعودة؛ فقد أدرك أن لوزة لوزات قد تكتشفان شيئاً ما يشكل خطراً عليه.

شقاوة يفضح فضّة

لم يحب الأطفال - باستثناء جورج - شقاوة، كانوا يخافونه، ويظنون أنه أكثر مرضاً وشراً منهم، هذا غير صحيح؛ ولكن حتى لوزة لوزات لم تستطيعا تحييدهم عن رأيهم هذا، كما أنه كان أكثر الصبية الذين يتسببون في الإزعاج والاضطراب في الملجأ، كان يتشاجر ويهرب ويبحثون عنه باستمرار.

أكثر ما كان يخشاه شقاوة هو البنات؛ فقد تعرف في ملجأ آخر على بنت عذبته باستمرار، إذ قصت عليه قصصاً مرعبة عن قتلة وأشباح، وكانت تلوي ذراعه خلف ظهره دائماً عندما تنفرد به؛ لذلك كان يتفادى البنات، وكان قد سمع أباه الثاني بالتبني يقول: «إن النساء شياطين»، ولذا يدعي شقاوة أن النساء شياطين على الرغم من أن لوزة لوزات على سبيل المثال لسن كذلك ولا المديرة أيضاً، ولكنه لم يأبه لذلك.

كان واثقاً أن فضّة شيطانة، وما إن تقترب منه

حتى يفر. كانت طويلة وبدينة، وتبدو كامرأة ناضجة، مع أنها لم تتجاوز الثانية أو الثالثة عشر من عمرها، وتبدو خبيثة وماكرة، وهي الزعيمة في عنبر نوم البنات مثلها مثل جورج في عنبر الصبية، وتطيعها كل البنات.

وكلما حدث شجار مع شقاوة أو بسببه تدعي فضّة أنها كانت تعرف ذلك قبل حدوثه، وتصيح قائلة: «لا أمل في شقاوة! فهو يفسد كل شيء»، وعندما هربت نونة الصغيرة من الملجأ، وبحثوا عنها ليل ونهار، ولم يعدها غير الشرطة؛ أسرعت فضّة إلى الآنسة نوزات وقالت لها إن شقاوة هو السبب في هرب نونة، لم تصدق الآنسة لوزات ذلك، ولكن فضّة أكدت لها ذلك، وقالت إن شقاوة قال لنونة: «إن الحياة خارج الملجأ جميلة»، وقص عليها حكايته مع الأسود.

عندما واجهت الآنسة لوزات شقاوة بذلك فزع شقاوة من افتراء صفاء، وأنكر أن يكون قد تحدث أصلاً مع نونة، وقال متلعثماً: «هذا ليس حقيقياً؛ تلك الفتاة الغبية تكذب»، نهرته الآنسة لوزات وأخبرته

أنه عليه أن يكف عن استخدام هذه الألفاظ، فقال: «ولكنها فتاة غبية وكذابة أيضاً».

وبعد نونة هربت بنتان غيرها، وتعين البحث عنهما، وجاء السيد بقّال موظف مصلحة رعاية الشباب إلى الملجأ، وادعى أن ثمة شيئاً غير مضبوط هناك، وكان يظن أيضاً أن شقاوة هو السبب؛ لذا ويخت الآنسة لوزات شقاوة مرة أخرى، وأمطرته بالأسئلة ونبهته، وهددته بأن موظف مصلحة رعاية الشباب سيأمر بترحيله من الملجأ إن هربت بنت أخرى.

هربت بنت أخرى فأسقط في يد شقاوة، حاصروه وبثوا الخوف في نفسه، مع أنه لا ذنب له فيما حدث، تسبب في كثير من المتاعب، وكان يرتكب كثيراً من الأخطاء، فقد أطلق سراح أرانب الجيران قبل فترة قصيرة، وكسر صنبور الحوض الذي في الرواق بالخطأ عندما أراد إصلاحه، وسكب العسل على تنورة المديرة؛ ولكن لا ذنب له فيما يحدث للبنات.

لم يكن شقاوة غبياً كما يظن الآخرون، وعندما أيقن

أن الآنسة لوزات لا تصدقه عرف أن عليه الاعتماد على نفسه، وهكذا حدث تحول غريب في سلوك شقاوة؛ فقد بدأ يهتم بالبنات، ولم يعد يتحاشهن، مع أنهن يسخرن منه عندما يبدأ في التلعثم ولا يتم جملة واحدة، وكن ينبهرن بغنائه أو هداياه الصغيرة؛ مثل حلزونة حية، أو ضفدع اصطاده ووضعه في علبة، والشرائط الملونة الجميلة التي يجمعها، كان يوزع هداياه فيما يبدو بصورة عشوائية؛ ولكنه في الحقيقة كان يتبع خطة معينة، فقد كان يريد معرفة سر هرب البنات؛ فلا يعقل أنهن يهربن بلا سبب ومن دون أن يقنعهن أحد بذلك؛ فالحياة في الملجأ كما يرى شقاوة جيدة وإن لم تكن مثالية، سأل شقاوة البنات عن الأسود التي قابلها، وقال لهن إنها أسوده هو، ولا يراها أحد غيره، ولا تأتي إلا إليه.

لم تخبره البنات شيئاً في البداية؛ ولكن عندما ألحّ في السؤال بضعة أيام عرف من سلب منه أسوده؛ إنها صفاء، فقد قالت للبنات إن أسود شقاوة ترعى في مرج قريب جداً، وإنها أليفة مثل الكلاب وعصافير الكناري، ونسيت أنها يمكن أن تفترس البشر.

هكذا اتضح الأمر لشقاوة، فضّة تريد الإيقاع به، تريده أن يرحل من الملجأ، ولذلك كرهها؛ فهي مثل الساحرات الشريرات، ولكن كيف عساه أن يشرح للآنسة لوزات أن فضّة وليس هو. من يدفع البنات للهرب من الملجأ؟ خطرت بباله فكرة، مضى إلى الآنسة لوزات وقال: «أريد أن ألعب»، ردت عليه الآنسة لوزات قائلة: «ولكنك تلعب طوال اليوم!»، تلعثم شقاوة بشدة، ولم يستطع نطق كلمة مفهومة، ثم صاح في النهاية قائلاً: «لعبة اللاعبات»، فقالت له: «ليس لدي وقت لذلك الآن»، صاح قائلاً: «بل يجب أن ألعب .... هذا مهم».

أرجأت الآنسة لوزات اللعبة إلى المساء، وبعد العشاء سألته إن كان مصراً على اللعب، فأكد لها مرة أخرى قائلاً: «هذا مهم».

وفي المساء أحضرت الآنسة لوزات شقاوة، وأوضحت له أنها تعرف اللعبة التي يحفظها، قال لها: «هذه لعبة أخرى»، جلس أمام الآنسة لوزات على المنضدة، ونظر إلى القطع وأخذ منها أربعاً، وقال للآنسة لوزات:

«هذه هي الأسود»، قالت: «كما تشاء»، وضع الأسود في أقصى ركن على المنضدة، وقال: «هي في المرج عند الراعي، أتعرفين ذلك؟».

قالت: «نعم أعرف؛ فهي أسودك»، وأكد ذلك شقاوة غاضباً بقوله: «نعم هي أسودي، أسودي، وليست أسود صفاء!». قالت الآنسة لوزات: «صفاء لا تعرف أسودك».

بدأ شقاوة يفقد الأمل، وفي الركن المقابل على المنضدة بعيداً عن الأسود بنى شيئاً مثل المنزل، ووضع فيه قطعاً كثيرة، وقال: «هذا هو الملجأ، وها نحن فيه». قالت الآنسة لوزات: «صحيح». أشار شقاوة إلى قطعة كبيرة وقال: «النساء جميعهن شياطين». قالت الآنسة لوزات: «هذا هراء!». فقال: «ليس كلهن؛ ولكن هذه التي في الخارج». قالت الآنسة لوزات: «واصل اللعب يا شقاوة». لاحظ أنها انتبهت إليه جيداً، فقرب بعض القطع الصغيرة إلى القطعة الكبيرة وقال: «هذه تحكي لهن شيئاً». فسألته الآنسة لوزات: «ماذا؟». حدق فيها برهة ثم قال: «لن أقول شيئاً آخر». فقالت له: «العب

إذن». تجمعت القطع الصغيرة حول القطعة الكبيرة السميكة التي جعلها تقفز، وحرك فمه وكأنه يقول شيئاً. ثم وضع جميع القطع حتى القطعة الكبيرة، وترك قطعة واحدة ذهب بها إلى الأسود ووضعها في وسطها، ثم نظر إلى الآنسة لوزات في ترقب، وقال: «لم أحفظ هذا. هذا جديد». أومأت الآنسة لوزات قائلة: «فهمتك يا شقاوة؛ إن كنت لا ترغب في مواصلة اللعب يمكنك أن تذهب». سأل: «هل رأيت ذلك فعلاً؟». ردت عليه: «نعم». ذهبت به إلى عنبر النوم، كان الأطفال في أسرتهم، ولكنها ذهبت إلى البنات وأتت بصفاء، سمع شقاوة ذلك وفرح.

لم تهرب بنت بعد ذلك، وقالت الآنسة لوزات للمديرة: «شقاوة أذكى مما كان نظن».

شقاوة وعازف الأرغن

غنى شقاوة في الكنيسة بضع مرات، مع أطفال آخرين وبمفرده، كان يجب أن يذهب إلى البروفات. وكان ينسى ذلك دائماً. فتشرع لوزة لوزات في البحث عنه، وتصيحان في أرجاء الملجأ مناديتين عليه. وقد غلبهما اليأس، بينما شقاوة يجلس في إحدى خزائن الملابس في عنبر نوم البنات. كان يحب الغناء جداً؛ ولكنه كان يخشى جموع الناس، وإذا شرع في الغناء فليس بمقدور أحد إيقافه.

كان يحفظ في بادئ الأمر التراتيل والأناشيد على يد الآنسة لوزة، وكان سريع الحفظ، ولكن ليس في حفظ الكلمات، فقد كانت صعبة؛ وكثيراً ما كان يستبدل ما ينساه منها بـ «لاَ لاَ لاَ»، وكانت الآنسة لوزة ترى أنه ليس من المهم أن يحفظ كل شيء.

أما السيد برغل عازف الأرغن فكان له رأي مختلف، وكان يسوم شقاوة أصناف العذاب، ليس لأنه لا يحبه؛ بل – وكما كان يؤكد دائماً – من أجل الموسيقى، من أجل الفن!.

لم يعبأ شقاوة بالفن، ولم يدر أصلاً ما هذا، وكلمّا حاول السيد برغل أن يشرح له ذلك، يضغط شقاوة على الدوسات، ويجذب الأزرار التي تغير صوت الأرغن، فيغضب السيد برغل، فقد كان حريصاً على ألا يلمس أحد أرغنه، ويقول له: «انتبه يا ولد».

وتوضح له الآنسة لوزة أن شقاوة لا يستطيع أن ينتبه، فذلك ليس في مقدوره، وهو لا ينتبه إلا لو استمتع جداً بما يفعل، ورغم ذلك فإنه لا يستطيع الانتباه مدة طويلة، ولا بد أن يعتاد السيد برغل على ذلك.

كان السيد برغل يعلّم شقاوة الغناء بمصاحبة الأرغن، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير؛ فقد كان شقاوة يحفظ الألحان بسرعة جداً، ولكنه لم يفهم لماذا كان الأرغن «يغني» بصورة مختلفة عنه عندما يشرعان سوياً في ذلك، وفي كل مرة يبدأ فيها السيد برغل وشقاوة التدريب يتوقف شقاوة ويقول: «هذا ليس صحيحاً»، ويشرع السيد برغل في الشرح والتفسير، يتحدث عن الموسيقيين ومؤلفاتهم، وعن الموسيقي العظيم يوهان سباستيان باخ، فلا يفهم شقاوة أي

شيء، ويعاود السيد برغل الكرّة من جديد، ويتوقف شقاوة عن الترتيل، يقول السيد برغل: «لو لم يكن صوته ملائكياً لقذفت به من المقصورة، ورميته إلى الخارج منذ زمن».

كان يتدربان في البداية بمفرديهما، ثم مع جوقة المرتّلين. الجو في الكنيسة بارد بعض الشيء، لذلك كان شقاوة يرتجف بشدة، فهو لا يحب أن يرتدي أكثر من قميص وبنطلون، وارتعش صوته أثناء الغناء، ويطلق الموسيقيون على ذلك اسم «فيبراتو»، فقال له السيد برغل: «كف عن الفيبراتو»؛ وظن شقاوة أن الفيبراتو شيء عيب فقال: «ليس لي أي علاقة بالفيبراتو»، فصاح السيد برغل غاضباً وهو جالس إلى الأرغن: «ولكنك تحدثه!».

تعجب شقاوة من ذلك الشيء الذي لا يفعله، ولكنه كان يفعله بحسب رأي السيد برغل، ونظر شقاوة أسفله ليتأكد أن القميص ليس متدلياً خارج البنطلون، وربما يكون هذا هو الفيبراتو، فلم يكن يفهم السيد برغل، وما إن غنى حتى عاد الفيبراتو،

وأخيراً فهمت الآنسة لوزة أن شقاوة لا بد أن يرتدي معطفاً من الصوف حتى لا يحدث فيبراتو، الأمر كان له علاقة إذن بالقميص!.

كان أول العروض في المساء، وفرح الأطفال الذين سمح لهم بالغناء، لأنهم لا يسهرون في غير هذه المناسبة أبداً، وفي وقت الغروب عبروا الشارع متجهين إلى الكنيسة، وفكر شقاوة في الهروب، فربما سيزعق به السيد برغل مرة أخرى، لأنه يحدث فيبراتو، فيعتريه الخجل أمام الجمع الغفير من الناس، كما أنه لم يتعلم بعد كيف يغني مع الأرغن؛ لأن صوت الأرغن مختلف عن صوته.

حدست لوزة لوزات ما يدور في نفس شقاوة؛ فأخذتاه ليمشي بينهما، فأصبح أسيراً، ومع أنه كان يرتدي المعطف الصوف الأخضر فقد بدأ في الارتجاف مرة أخرى، وبات من المتوقع أن السيد برغل سيغضب من فيبراتو شقاوة، ولم يخطر على بال شقاوة شيء من هذا القبيل.

كانت الكنيسة مكتظة بالناس، وشرع رواد الكنيسة يحدقون في الأطفال؛ فبدأ الأطفال يضحكون بصوت خافت، وخطر على بال شقاوة أن يخرج لسانه، ولكنه آثر ألا يسبب حرجاً للوزة لوزات، لهذا السبب فقط ظل لسانه في فمه، وكان يشعر بصداع شديد مع أن الطبيب أعطاه حقنة إضافية بعد الظهر.

وقف الأطفال في المقصورة أمام الأرغن. في البداية تحدث رجل يقف في مقدمة الكنيسة مدة طويلة؛ فأصيب شقاوة بالملل الشديد وجلس على الأرض، إلا أن الآنسة لوزة كانت تقف خلفه فسحبته إلى أعلى مرة أخرى، وقالت له: «لم يبق إلا وقت قليل يا شقاوة ويأتي دورك».

وفجأة ارتفع صوت الأرغن، وهمّ شقاوة بالغناء؛ إلا أن يد الآنسة لوزة امتدت أمام وجهه وأغلقت فمه، وهمست في أذنه قائلة: «لم يحن الوقت بعد، هذه هي الافتتاحية يا شقاوة، لقد قلنا لك ذلك ألف مرة». إلا أن شقاوة لم يتذكر أنهم قالوا ذلك، وبعد الافتتاحية غنت جوقة المرتلين، وغنى شقاوة معها بكل ما أوتي

من قوة، وأخيراً حان دوره، وهمست الآنسة لوزة في أذنه: «هيا لقد أتى دورك»، جعل السيد برغل الأرغن يصدر صوتاً مجلجلاً، فعد شقاوة ذلك خطأ، وقرر ألا يغني، توقف السيد برغل عن العزف وتطلع الجميع إلى أعلى، وشرع السيد برغل يلوح بذراعيه ويفتح فمه ويغلقه وهو جالس على كرسي الأرغن، وحدق في شقاوة تحديقاً بث الخوف في قلبه، وقالت الآنسة لوزة هذه المرة بصوت مرتفع جداً: «هذه هي الموسيقى المصاحبة؛ يجب أن تغني يا شقاوة»، وبدأ السيد برغل في العزف مرة أخرى، حاول شقاوة أن يمد صوته ليجاري الموسيقى المصاحبة؛ لكنه لم يستطع، فقد رأى أن عزف الأرغن خطأ، ولا يناسبه.

نهض السيد برغل غاضباً، وغمغم الناس في أسفل الكنيسة ونهض بعضهم، وتوقع شقاوة أن السيد برغل سيبرحه ضرباً، ولكنه لم يفعل ذلك؛ وإنما هز رأسه وقال للآنسة لوزة شيئاً لم يسمعه شقاوة، فأمرته الآنسة لوزة بالغناء من دون أرغن، ظن شقاوة أنه ربما يجد السيد برغل الفيبراتو فيه مرة أخرى فقال:

أفضل ألا أغني. قالت له الآنسة لوزات: كلا يجب أن تغني، الجميع ينتظرونك.

هكذا غنى شقاوة، لم يزعجه أحد: لا السيد برغل ولا جوقة المرتلين، ورأى أن صوته في الكنيسة جميل جداً، وعلا صوته بثقة تدريجياً، نسي جملاً كثيرة، واستبدلها بها «لالالا»، وما إن انتهى حتى عانقته الآنسة لوزات، وأتى السيد برغل بنفسه وملس على رأسه قائلاً: «ليتني أعلم من أين لك هذا؟»، امتلأت نفس شقاوة فخراً، وقال: «والفيبراتو لم يحدث»، رد عليه السيد برغل قائلاً: «كلا لم يحدث».

صفق الناس في الكنيسة، وأهدته الآنسة لوزة المعطف الأخضر الذي أعارته إياه من قبل، وفي الحفلة الموسيقية التالية لم يعزف السيد برغل على الأرغن عندما غنى شقاوة.

شقاوة يتمارض

شقاوة يعرف معنى المرض جيداً، ويعرف كثيراً من الآلام، رأسه تؤلمه كثيراً، وأذناه تطنان أحياناً، ويصاب أحياناً أخرى بنوبات دوار وبآلام في البطن من الأدوية التي يتناولها، فهو في حقيقة الأمر مريض بصفة دائمة، ولكنه لا يكترث بذلك طالما أنه يستطيع أن يثب ويقفز، وطالما أن آلام رأسه لا تنهك قواه.

ذات يوم أصابه صداع لم يملك إزاءه سوى أن يخبط رأسه في حائط حجرته؛ فقال أبوه بالتبني: «شقاوة جنّ جنونه». لم يفهم أن شقاوة لم يكن يريد إلا التخلص من الألم، ولم ير مخرجاً غير ذلك؛ فشقاوة لم يستطع أن يقول ذلك أيضاً. كان يصرخ مشيراً إلى رأسه: «أشعر بالألم».

وأبوه بالتبني يقول: «نعم نعم، رأسك أعرف».

هكذا لم يستطع أحد أن يفهم شقاوة.

تعرف شقاوة على أطباء كثيرين، بعضهم كان

يعامله بخشونة، وبعضهم الآخر عامله برقة، وعرف
كلمة خبيثة كان يخشاها: عضال، قال للآنسة لوزات:
«لست عضالاً»، يمكنني الجري واللعب، كان الطبيب
الذي يأتي يومياً إلى الملجأ يعامله برقة بالغة، اسمه
الطبيب كريم، وقال له: «أولادي ينادونني حكيم؛
يمكنك أن تناديني هكذا»، وحكى له أن أطفاله ليسوا
أطفاله الحقيقيين؛ وإنما هم أطفال كانوا في الملجأ
مثله. قال له حكيم: «لدي الآن ثلاثة».

رأى شقاوة ذلك شيئاً رائعاً، واجتهد آملاً أن
يصبح ابناً لحكيم، ولكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير؛
فأحياناً كان ينهره حكيم ويقول له إن عليه أن يكفّ
عن فعل السخافات، ويحاول أن يتحدث على الأقل
مع الآنسة لوزات والآنسة لوزة بطريقة جيدة، ويقول:
«افتح فمك يا شقاوة».

كان حكيم يريد أن يعرف ما يفكر فيه شقاوة في
أثناء النهار وما يحلم به؛ فيحكي شقاوة له ذلك، إلا
أن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً، لأنه من الصعب عليه
العثور على كلمات تعبر عن الأشياء التي يفكر فيها.

أعجب حكيم بقصة حكاها شقاوة على وجه خاص؛
فقد قال له: «خرجت من الملجأ، وأخذت خبزاً معي
حتى لا أموت جوعاً، أريد أن أسافر بعيداً، أريد أن
أسافر إلى البلد التي يصنعون فيها الشمس، يضعونها
في السماء كي تضيء الدنيا، أريد أن أرى من يفعل
ذلك، هم أناس كثيرون؛ لأن الشمس ثقيلة وتحتاج
إلى أناس كثيرين لرفعها، هل يحرقون أصابعهم أثناء
ذلك؟ لكن الشمس ترتفع دائماً، الناس يقذفونها في
السماء، هي طرية ومضيئة».

أوضح له حكيم أن الشمس تبعد عن الأرض ملايين
الكيلومترات، وأنها نجم، نجم كبير يدور الأرض
حوله.

قال شقاوة: «الأرض لا تدور، الأرض لها نهاية».

خالفه حكيم قائلاً: «الأرض كروية؛ وليست
قرصاً».

لم يحتمل شقاوة هذا، فقطع الحديث قائلاً: «هذا
ليس صحيحاً، كلام فارغ».

كان يقول «كلام فارغ» كثيراً؛ فقد كانت الكلمة المفضلة لأول أب له بالتبني، كان يرى أن كل ما يقوله شقاوة كلام فارغ، وعليه قرر شقاوة أن يعد كل ما يقوله الآخرون كلاماً فارغاً، كان حكيم يستدعيه إلى غرفة خاصة بالطبيب؛ فيها طاولة صغيرة عليها حقن وأدوية، وحوض يغسل فيه حكيم يديه باستمرار، وكان شقاوة يبذل قصارى جهده ليضمه حكيم إلى أطفاله، ولكن حكيماً لم يفعل ذلك، لم يقل له: «تعال معي إلى البيت، يمكنك أن تكون من أولادي».

تساءل شقاوة لماذا لم يقل حكيم ذلك؛ أغلب الظن أن فيه عيباً يراه الطبيب سيئاً جداً، ربما يأخذه الطبيب إن مرض بشدة؟ وهكذا قرر شقاوة أن يمرض مرضاً شديداً.

كان يتقن هذه اللعبة، تعرف في المستشفيات على أطفال في مقدورهم أن يصابوا بالحمى وقتما يشاؤون، كانوا يضعون الترمومتر في الحليب الدافئ أو يحكونه بأذرعهم، فيصابون بالحمى! ولكن الحمى أمر هين في نظر حكيم، لا بد من شيء أكبر، مرض أروع! وهكذا قرر شقاوة أن يفقد قدرته على الحركة.

وذات صباح ظل شقاوة راقداً في السرير، أتت إليه الآنسة لوزة المسؤولة عن إيقاظ الأطفال وقالت: «انهض يا شقاوة»، ولكنه لم يتحرك قيد أنملة، أحضرت الآنسة لوزة الآنسة لوزات لأنها كانت على علاقة أفضل به، جلست الآنسة لوزات على حافة السرير ورجته بصوت هامس قائلة: «أنت تستطيع النهوض يا شقاوة، فصحتك كانت جيدة أمس، ماذا حدث؟»، ظل شقاوة محدقاً في السقف وكأن جسمه كتلة خشبية صماء، بدا متيبس الأطـراف جامد الوجه.

وظنت الآنسة لوزات أنه لا يسمعها فسألته: «هل أنت جائع يا شقاوة؟».

لم يتحرك شقاوة قيد أنملة.

رفعت الغطاء ونظرت إليه، هالها تيبسه، وقالت سأستدعي الطبيب، جاء حكيم وألح عليه لينهض، ولكنه ظل متيبساً، جسه بيده جسات سريعة خفيفة، دغدغه بعض الشيء؛ ولكنه ظل متخشباً، قال حكيم

إنه يعرف هذه الحالات، وقد تستمر وقتاً طويلاً. لذا من الأفضل نقل الطفل إلى المستشفى.

عندما سمع شقاوة أنه يجب أن ينقل إلى المستشفى انتابه الهلع، ولكنه قرر أن ينتظر حتى يحين الوقت. وظل راقداً ساعات، والأطفال يلعبون من حوله، كان غائباً، كان مريضاً.

وبعد الظهيرة جاء ممرضان برفقة حكيم الذي أشار إلى شقاوة قائلاً: «هذا هو المريض، وضع الرجلان الحمالة إلى جانب السرير، ووضعوا شقاوة عليها وكأنه لوح خشبي»، فقال حكيم: «هذا عجيب!». رفعوا الحمالة وخرجوا بها من عنبر النوم، ونزلوا درج السلم، ولكن عندما وصلوا إلى باب الملجأ هبّ شقاوة منتفضاً وقفز عن الحمالة وفر كالأرنب المذعور، فقال حكيم: «كنت أعرف ذلك».

بعد بضعة أيام سأل حكيم شقاوة: «لماذا مرضت؟» لم يرد شقاوة، سأله حكيم: «هل ضايقك أحد؟». أومأ شقاوة برأسه، سأله حكيم: «من؟»، هز شقاوة

رأسه، وبعد ذلك بوقت طويل سأل شقاوة حكيم بعد أن حقنه: «كم عدد أطفالك الآن؟»، أجاب حكيم: «ثلاثة، لا يزالون ثلاثة؛ لا يسع بيتنا أكثر من ثلاثة»، ففر شقاوة من أمامه، وفهم حكيم على الفور مرض شقاوة؛ لم يكن في مقدور حكيم أن يأخذ شقاوة معه إلى البيت مع أنه كان يحبه كثيراً.

لماذا لا يتعلم شقاوة شيئاً أم ماذا تعلم؟

لن تتعلم شيئاً أبداً: هذا ما كان يقوله الأبوان بالتبني ومن يعملون في المستشفيات والملاجئ لشقاوة باستمرار، أنت في غاية الغباء، آمه هذا في البداية: ولكن بعد ذلك تظاهر بالغباء الشديد ليضايقهم، جعل ذلك سلاحاً موجهاً، فهو لم يكن غبياً؛ وإنما لم يكن في مقدوره أن يتعلم، لم تخلق رأسه لذلك.

ما إن يجلس ليقرأ أو يكتب حروفاً حتى يعتريه القلق، ويتململ في مقعده، ثم يقفز منه ويجري في الحجرة قائلاً: «هذا يستغرق وقتاً طويلاً»، لم يكن شقاوة يستطيع الصبر.

رأسه ـ الذي يوصف بأنه غبي ـ يعج بأفكار وأفراح ومخاوف لم تكن تسمح له بأن يفعل ما يسميه الكبار «المذاكرة كما يجب»، كان يفضل الرسم ولكن بسرعة، كان يرسم أناساً وبيوتاً ولا يحب أن يلونها، وتعلم بضعة حروف، وكان يستطيع قراءة بعض الكلمات وكتابة اسمه (شقاوة). لم يكن هذا اسمه الحقيقي؛

فقد نسي اسمه الحقيقي منذ أمد، وعلى العموم فهو مكتوب في الملفات التي تنتقل معه من ملجأ إلى ملجأ، ومن مستشفى إلى مستشفى.

حاولت الآنسة لوزات أن تذاكر له، كانت تعطيه كتباً مصورة، وتطلب منه أن يروي ما بها من حكايات، وفي الكتب كلمات كان يعرف بعضها، وعندما يجد إحدى هذه الكلمات كان يفرح، ومع ذلك لم تستطع الآنسة لوزات أن تعلمه سوى كلمة «شجرة»، ولكنه كان يحب شجرة التفاح التي في الحديقة أكثر من «الشجرة» الكلمة المكتوبة.

لم يكن من يرى أنه غبي ولا يتعلم شيئاً على حق: فقد تعلم أشياء كثيرة، تعلم أن يعيش في الملاجئ، وهو أمر ليس بالهين، حفظ الاختبارات المصورة التي كان يجريها له الأطباء والمعالجون النفسيون، تعلم أن يتحاشى الناس التي لا تحبه، تعلم أن يدافع عن نفسه أمام الأطفال الذين يهاجمونه، تعلم أن يلعب رغم الصداع، تعلم الكثير، وكان في مقدوره الغناء دائماً، ولم يتعين عليه تعلم ذلك؛ ولكنه كان يجد أن تعلم الأغاني التي يجب عليه غناؤها أمر صعب جداً.

لم يتعلم شقاوة إذن إلا ما كان يحتاج إليه للحياة بمستوى معقول؛ أي أن يعيش في الملاجئ والمستشفيات من دون أن يتعرض كثيراً للسباب والضرب، هذا ما تعلمه شقاوة.

وداعاً شقاوة: الهروب الأخير

لم يدفع أحد شقاوة إلى الهروب، لم يضايقه أحد، لا البنات ولا حتى السيد عادل، كما أن المديرة والآنسة لوزات كانتا لطيفتين معه، ومع ذلك هرب، آلمه رأسه بشدة، وكاد أن يفقد قدرته على التنفس برهة، لم يدر سبباً لذلك، ولكنه ظن أنه سيموت.

عندما شعر بتحسن مرة أخرى تذكر الأسود التي يدعي الكبار أنها مجرد خرفان، وقرر أن يرحل إلى الأبد، أراد أن يرى الشمس المثبتة على حافة الأرض ولهيبها الأحمر، أو القمر الذي يمسكه عملاق أسود في السماء وكأنه قبعة بيضاء، أراد أن يجري مع الغنم، ولعله اشتاق أيضاً لراعي الأسود الذي حمله على ذراعه وهدهده، وكانت ملابسه تفوح بعبق الأسود والهواء، لم يقل لأحد قط سبب هروبه.

انتظر في خزانة الملابس حتى نام جميع الصبية، وانسل من البيت، كان يجيد ذلك وقد تدرب عليه مراراً، تسلق إلى نافذة المرحاض التي في الطابق

الأرضي، وفي صباح اليوم التالي هاتفت المديرة الشرطة عندما اكتشفت الآنسة لوزات أن شقاوة قد هرب، قالت مصلحة رعاية الشباب وموظف الشؤون الاجتماعية: يجب نقل الفتى إلى مستشفى، وقال الطبيب الشيء نفسه، ولكنهم لم يعثروا على شقاوة بعد ذلك.

جرى شقاوة في الاتجاه الذي ظن أنه يفضي إلى قطيع الأسود، صعد التلال وعبر الحقول وتاه في السهول، لم يمش عبر الغابات لأنه كان يخشاها، ولكنه اضطر أن يمشي عبر غابة واحدة فقط، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن نام على أطرافها، وغمرها الضوء في الصباح فلم تعد تخيفه، تجول في طرقاتها، وجمع ثمار البلّوط ودسها في جيوبه، ورأى أيضاً يحمورين، واليحمور حيوانٌ من فصيلة الأيّليّات صغيرٌ، ذو قرونٍ نحيفةٍ عموديّةٍ على الرّأس، ورأى أرنباً، حاول أن يلاحقهما، سمع جراراً، فاختبأ خلف شجرة كبيرة حتى ابتعد الصوت، ارتاح للغابة، فلن يعثر عليه أحد هنا؛ ولكنه كان جائعاً وعطشاناً، مضغ ثمرة بلّوط،

فوجد مذاقها كريهاً، فلفظها مرة أخرى، تذكر أن أول أم له بالتبني كانت تجمع ثمار الجوز، وعثر على بعض هذه الثمار؛ لكن أغلبها كانت بلا بزور وفارغة، ومع أن بعضها ضم بزوراً بمذاق الزيت فإنها لم تشبعه. وازداد عطشه، وجد جدول ماء تطفو فيه كمية كبيرة من الأوساخ، ملأ يديه بالماء وشرب، ولكن الماء كان بمذاق البنزين والصابون فلفظه مرة أخرى.

خلف الغابة هناك تل صغير آخر تعلوه بعض البيوت، جلس على أطراف الغابة ونظر إلى البيوت، كان يحب البيوت والشقق والحجرات، كان يحب أن يكون له بيت في مكان ما، وتساءل لما لا يسمح الكبار بذلك، كان يقولون له دائماً أنت شقي وغبي وخطير، ولكنه كان يرى أن ذلك كله غير صحيح.

وعندما اشتد به الجوع والعطش نهض وانسل إلى أحد البيوت، كانت ثمة سيدة تعمل في حديقة البيت، وقف شقاوة أمام السياج وراقبها.

سألته السيدة: «من أين أنت؟».

لم يقل شقاوة شيئاً.

قالت السيدة: «لا أعرفك؛ أنت لست من هنا؟».

لم يقل شقاوة شيئاً مرة أخرى؛ لأنه كان يدرك أن الناس ينفرون منه على الفور عندما يتكلم، قالت السيدة: «اذهب إلى البيت؛ ألا يجب عليك الذهاب إلى المدرسة؟».

هز شقاوة رأسه نافياً، أتت السيدة نحوه بخطوات بطيئة وسألته: «هل ينقصك شيء؟».

هز شقاوة رأسه نافياً مرة أخرى، دخلت السيدة البيت، ثم عادت بعد مدة وسألته: «هل أنت جائع؟».

أومأ شقاوة برأسه بالإيجاب.

قالت له: «سأحضر لك خبزاً».

وهمت بالذهاب فقال شقاوة متلعثماً: «وحـ ..... ليب»

أحضرت السيدة الخبز وكوباً من الحليب، وناولته لشقاوة عبر السياج، جلس شقاوة أمام السور يأكل ويشرب، تجاذبا أطراف الحديث، لا، لم يتجاذبا

أطراف الحديث؛ تكلمت السيدة فقط، حكت له الكثير، ولكنه لم يفهم إلا القليل، ولم يعبأ لذلك.

أكل وشرب وجلس مدة حتى جاءت سيارة قفز منها شرطيان، أدرك شقاوة أن السيدة وشت به، فقفز ناهضاً وجرى مسرعاً، جرى الشرطيان خلفه، كان يستطيع العدو بسرعة؛ ولكن الشرطيان كانا أكبر ونفسهما أطول من نفسه، وقبل أن يصل إلى الغابة أمسكا به، دافع عن نفسه، عضّ أحدهما في يده، وركل الآخر في بطنه، فصفعه الأخير فهدأ ثم شرع في البكاء.

قاده الشرطيان إلى السيارة، وجلس أحدهما بجانبه على المقعد الخلفي، وانطلقا في اتجاه المدينة، هناك كان الطبيب وموظف الشؤون الاجتماعية في انتظاره، أظهرا إشارات الجد على وجهيهما، وقال الطبيب: «هذا ليس أمراً سيئاً؛ ولكن من الأفضل أن تذهب إلى المستشفى ليعالجوك».

ارتمى شقاوة على الأرض صرخ وبكى ثم نهض متحفزاً.

قال الطبيب: «هذا من أثر الصدمة: أصابته نوبة».

لم تصبه نوبة ولكنه لم يكن يريد الذهاب إلى المستشفى، أتت المديرة بملابسه وملفاته، وذهب الطبيب معه إلى المستشفى بالسيارة وسلمه هناك.

تحدث الأطفال مدة من الزمان عن شقاوة، وعلمت الآنسة لوزات أنه نقل من هذا المستشفى إلى مستشفى آخر، وكانت تفكر فيه كثيراً، وبعد مدة كانت هي. من دون شك. الوحيدة في الملجأ التي تتذكر شقاوة، ثم تركت الآنسة لوزات الملجأ وتزوجت وأنجبت، وكانت كلما تحكي لأولادها عن شقاوة تتساءل في نفسها عما حدث له.

خاتمة: الأطفال يسألون الكاتب

يسألني الأطفال بعد أن أقرأ لهم حكاية شقاوة: «هل شقاوة شخصية حقيقية؟»

نعم شقاوة شخصية حقيقية، ولكن هذا ليس مهماً؛ المهم أن تعرفوا أن هناك أطفالاً مثله مرضى يضطرون للعيش على هذا النحو في المستشفيات والملاجئ.

هل كان شقاوة مريضاً حقاً؟

ما هو مرضه؟

أغلب الظن أنه عانى من مرضين؛ أولهما استطاع الطبيب اكتشافه، وهو الصداع والتشنجات وآلام البطن. هذا هو المرض العضوي، وله بالتأكيد مسمى صعب، أما المرض الآخر فلا يقدر الأطباء على مدواته؛ كان شقاوة مريضاً لأنه لم يجد من يرعاه ويهتم به، لأنه عاش معظم حياته في الملاجئ والمستشفيات فقط، لأنه لم يكن هناك من يلعب معه ولا من يثق به،

وأظن أن هذا هو المرض الأسوأ، فهو مرض عضال، إن لم يقدم الجميع يد المساعدة، وإن لم يكن هناك أناس يحبون الأطفال أمثال شقاوة.

ولكن الآنسة لوزات أحبت شقاوة.

يبدو أن هذا لا يكفي؛ لا بد أن يكون هناك أناس كثيرون مثلها، ولا بد أن يعيش وسطهم حياة طبيعية، عندئذ يستطيع أن يعرف معنى الحياة.

هل يشفى هؤلاء الأطفال؟

نادراً؛ لدينا القليل من الوقت لنرعاهم ونهتم بهم، لذلك يبقون مرضى.

إذن ينبغي أن تصبح هذه الملاجئ أجمل.

يكلف ذلك الكثير من المال، ويفضل الناس إنفاق هذا المال على إنشاء الطرق والمنازل وصناعة السيارات والطائرات، وينفقونه على كل شيء من أجل رفاهيتهم.

ربما ليس هناك حاجة إلى هذه الملاجئ؟

من يمرض لا بد من رعايته؛ فالمريض في حاجة للمساعدة.

هل من سبيل آخر للمساعدة إلى جانب هذه الملاجئ؟

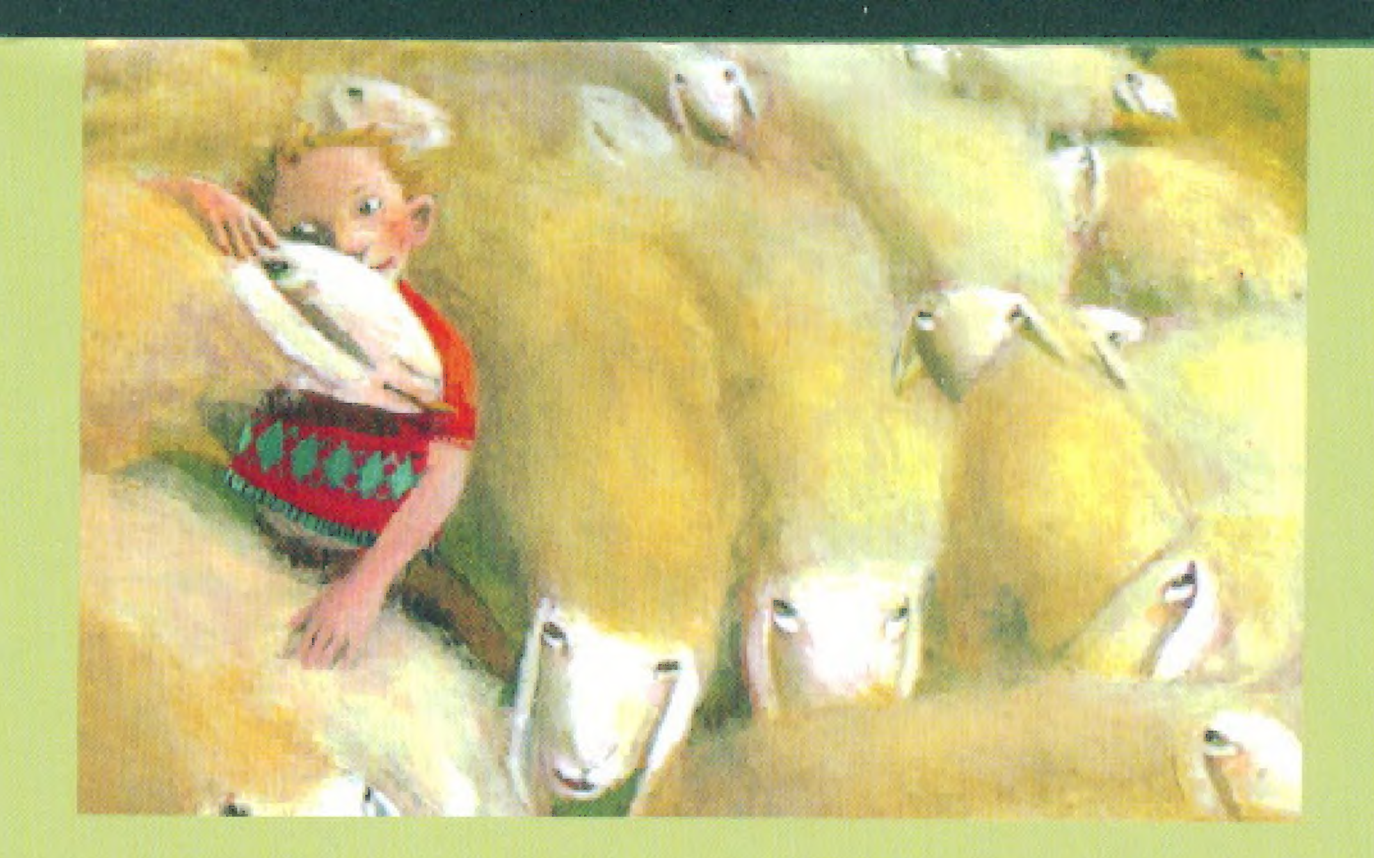
نعم في مقدورنا أن نساعد بوسائل شتى، ولكن ذلك يتطلب جهداً، لا بد أن يغير الكثيرون ما في أنفسهم، عليهم أن يفكروا في الأطفال أمثال شقاوة؛ هؤلاء الأطفال الذين ننساهم، لأن الملاجئ تحمل عنا عبأهم، ويختفون فيها.

إنهم مجانين ويفعلون أشياء غريبة.

يبدون لنا مجانين؛ لأننا لا نتحلى بالصبر، ولا نبذل جهداً لفهمهم، يمكن أن يلعب هؤلاء الأطفال مع أقرانهم في دور الحضانة، لو أبدى الجميع الاكتراث والحرص الضروريين، ولم يسخر منهم أحد، ويمكن أن يكون لهم مدارس، وأن يكون لهم آباء وأمهات بالتبني تعلموا كيف تكونون آباء وأمهات لشقاوة وأقرانه.

نبذة عن المترجم:

ولد محمود حسنين في عام 1982 بالقاهرة، وحصل في عام 2003 على درجة الليسانس في علوم اللغة الألمانية وآدابها من كلية الألسن بجامعة عين شمس، ثم عمل مترجماً في المجال التقني والصحفي. ويدرس حالياً في جامعة يوهانز غوتنبيرغ في ماينتز بألمانيا لنيل درجة الماجستير في علم الترجمة.



حكايات الولد شقاوة

سواء أكنت في الثامنة أم في الثمانين لن تترك هذا الكتاب من يدك حتى تقرأ آخر سطر فيه، ستضحك وأنت تقرأ مغامرة شقاوة مع السيد دعبوس، وتدمع عيناك عندما يتمارض شقاوة، ستنبهر بقدرة الكاتب على رؤية العالم بعين طفل يتوق إلى الدفء والحنان، وتتذكر في نهاية المطاف شقاوة «العربي» وتتساءل: هل يشعر أحد به؟

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة






ISBN 978-9948-01-404-1